أ. عباس بسنديدة
باحث ومدرس في الحوزة

دراسات ومقالات

الاتحاد ونظرية القوة في فلسفة الاسلام السياسية

بسم الله الرحمن الرحيم

الاقتدار هو اصل اساسي في نظام الخليقة وهو في نفس الوقت مبدأ بشري وماوراء الدين، ويعني ذلك انه لايختص بالمجتمعات الدينية حيث يكمن بقاء الانظمة الباطلة اعتماداً على هذا المبدأ بالرغم من وجود التأمل في مدى بقاء المجتمع على الباطل، ولكن على اية حال اذا كان المجتمع يرسي على هذا الاساس سيعطي ثماره.

في الفلسفة السياسية للإسلام تعتمد السيادة والحاكمية الدينية على عنصر القوة الاجتماعي وتعتمد القوة الاجتماعية على اتحاد ابناء الامة وتنسيقهم مع الولي الفقيه: ولذلك فإن انفكاك الشعب وعدم تنسيقهم مع الولي الفقيه يؤدي إلى الوهن والضعف او يصيب تشكيل الحكومة الدينية او استمرارها بالعقم.

لقد قدم كاتب هذا المقال بحثه في دراسة دور القوة ومصدر القوة في الفلسفة السياسية للإسلام ونظرية القوة والوحدة الاسلامية من وجهة نظر الامام الخميني(ره).

دور القوة

تعتبر القوة من أهم العناصر المؤدية لظهور النظام السياسي وديمومته ولاتستطيع اية فكرة ضعيفة أن تواصل حياتها. فولادة الانظمة وديمومتها بل وحتى الحضارات ترتبطان بمدى اقتدارهما.

و تعتمد المدة الزمنية والمساحة الجغرافية للأنظمة والحضارات على هذا العنصر. فكل ما يزداد عنصر القوة في النظام يزداد فيه مدى نفوذه الجغرافي والتأريخي.

إن هجران فكرة الحق يشير إلى أن الحقانية بمفردها لاتكفي لضمان حاكميتها. كما تشير سيادة الافكار الباطلة طوال التاريخ الى امكانية وصول اصحاب غير الحق إلى السيادة والسلطة. فعليه تعتمد ولادة الانظمة والحضارات على اقتدارها ويعود موتها إلى ضعفها وانعدام اقتدارها.

النقطة المهمة والجديرة بالذكر هي أن القوة تعد اصلاً اساسياً في نظام الخليقة كما تعتبر القوة اصلاً بشرياً وماوراء الدين؛ ويعني ذلك إن القوة لاتختص بالمجتمعات الدينية. بل أن سر ظهور الانظمة والحضارات الباطلة يكمن في وجود هذا الاصل. ولذلك عندما نقل نبأ انتصارات معاوية إلى الامام علي عليه السلام فقال:

«اني والله لأظن أن هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم»[١]

فبالرغم من وجود التأمل في مدى بقاء الاجتماع على الباطل لكن في حالة تحقيق الاجتماع فان ذلك سيعطي ثماره.

مصدر القوة

بعد اتضاح دور القوة يتبادر إلى الذهن هذا السؤال وهو: ما هو مصدر القوة وما هو الشيء الذي يؤدي إلى حصول الاقتدار؟ للإجابة على هذا السؤال فيما يتعلق بمصدر القوة هنالك عدد من النظريات يمكن طرحها: فالبعض يرى بأن القوة والاقتدار

نابعان من شخصية الحاكم ومن يمسك بزمام السلطة، وكما يقال القوة الكاريزمية للقائد «شخصية القائد» وليس لباقي العناصر دور مصيري في ذلك. واعتماداً على هذه الرؤية ينبغي إنتخاب زعيم يتمتع بالقوة الفائقة وعندها يتوقف استمرار مثل هذه السلطة على حياة هذا الزعيم او القائد، ولكن عند وفاته يأخذ نظامه السياسي بالضعف والضمور.

و البعض الآخر قد يرى ان مصدر القوة يكمن في وجود القوة والقوة العسكرية، ويعني ذلك ضرورة اللجوء إلى الاجراءات المسلحة لايجاد ثورة سياسية والاطاحة بالنظام السياسي الموجود، وطرح نظام جديد. كما ينبغي الحفاظ على التفوق التسليحي لبقاء هذا النظام، وفي هذا الجانب يتبلور سباق التسلح والتنافس العسكري بين الدول.

ومن الممكن أن يعتبر الاقتصاد والصناعة والمال مصدراً للقوة؛ فعلى اساس هذه النظرية ينبغي البحث عن سر استحكام وصمود النظم والحضارات في تفوقها الاقتصادي والمالي. غير أن إلقاء نظرة إلى التاريخ يجعل مواجهة هذه النظريات مشكلة. فالقرآن الكريم يشكل مصدراً موثوقاً لدراسة هذا الموضوع، والذي يستدعي بحثاً مستقلاً. وتشير دراسة هذا الجانب من القرآن الكريم إلى أن الكثير من الحضارات بالرغم من تمتعها بعناصر القوة الا أنها انتهت وزالت. وقد جاء في الآية ٣٦ من سورة قاف مايلي:

«و كم اهلكنا قبلهم من قرن هم اشد منهم بطشاً فنقبوا في البلاد هل من محيص»

«و يعني ذلك كم من طوائف كانت تحكم قبل هؤلاء فاهلكناها حيث كانت اقوى من هؤلاء وقد نفذت في كل الديار، فهل كان لهم طريق لنجاتها مع كل ما كانت تتمتع به من قوة؟!»

كما جاء في الآية ٧٨ من سورة القصص مايلي:

«اولم يعلم إن الله قد اهلك من قبلهم من القرون من هو أشد منهم قوة واكثر جمعاً»

بمعني إن الله عز وجل قد اهلك قبل ذلك الحاكم اقواماً كانوا أشد منه قوة واكثر ثـروة ومالاً.»

و في الآية ١٥ من سورة فصلت يشير القرآن الكريم بشكل محدد إلى مصـير قـوم عاد فيقول الله عز وجل فيها:

«فاما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وقالوا من اشدّ منا قوة اولم يروا إن الله الذي خلقهم اشد منهم قوة»[٢].

«ومعنى هذه الآية واضح وهي تشير إلى استكبار قوم عاد في الارض بغـير حـق وقالوا من يكون اقوى منا؟! ولكنهم لم يروا بان الله اشد منهم قوة؟!

و في جانب من هذه الآيات اوصى الله عزوجل الناس ليسـيروا في الارض لـيروا مصير اولئك الذين كانوا يتمتعون بعناصر القوة وكانت عاقبتهم مشؤومة حيـث تقـول الآية الكريمة:

«اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا اشد مـنهم قوة»[٣].

و تعني الآية الكريمة؛ هل إن الحكام الذين يحكمون بغير الحق لم يسيروا في الارض ليروا العاقبة التي انتهوا اليها وكانوا اشد قوة منهم ليعتبروا بمصيرهم ويعودوا إلى الحق في نهجهم؟ وقوله عزو جل في الآية:

«اولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا اشـدّ منهم قوة وآثاراً في الارض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من واق»[٤] .

و تعني الآية الكريمة هل إن هؤلاء الحكام الذين يحكمون بغير ما انزل الله من حق ليشاهدوا عاقبة الذين كانوا قد حكموا قبلهم وهم كانوا اكثر قوة منهم وما كان لديهم من آثار وعمارة في الارض؛ لكن الله عز وجل قد أهلكهم بذنوبهم وما كان هناك من قوة تقيهم مما انزل الله عليهم من عقاب نتيجة ذنوبهم.

و مقابل ذلك تارة تمكن افراد قلائل بعدّتهم القليلة من المقاومة بوجه قوى كـبرى

«كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله»[٥].

و تعني هذه الآية الكريمة بوجود فئات قليلة استطاعت من خلال ايمانها بالله عز وجل تحقيق النصر والغلبة على فئات كثيرة العدد والعدة باذن الله عز وجل. وقد لوحظت في التاريخ الاسلامي مرات عديدة استطاع بها المسلمون بعددهم وعدتهم القليلتين من الانتصار والغلبة على قوى تفوقهم عدداً وعدّة او حالوا بايمانهم دون انتصار اولئك الكفرة.

و في العهد المعاصر كذلك شاهدنا سقوط النظام الشاهنشاهي المدجج بالسلاح امام الناس العزّل. وكذلك لاحظنا الانهيار الفجائي للإتحاد السوفيتي الاشتراكي والقوة العالمية الثانية رغم ما كان يتمتع به من الكثير من عناصر القوة.

فهذه النماذج تشير إلى إن الحالات المذكورة اي العناصر العسكرية والاقتصادية والمادية الاخرى لاتستطيع أن تشكل مصدراً اساسياً للإقتدار رغم تأثيرها.

مصدر القوة في الفلسفة السياسية للإسلام

تعتمد القوة في الفلسفة الاسلامية على الوحدة في الفكر والعمل. فالفكر السياسي الاسلامي لايعتمد على القوة الكاريزماتية[٦] كأساس اصلي للإقتدار، ولاعلى القوة العسكرية او الاقتصادية ولا على اية قوة أخرى، بل تكون القوة «القوة الاجتماعية» نابعة عن اتحاد الشعب ومؤازرة الشعب. وفي الواقع يصنع الاتحاد الاجتماعي والآحاد المتفرقين من ابناء الشعب بقدراتهم المحدودة وبترابطهم مع بعضهم للبعض الآخر بصنع سد منيع وقوي، وبقوة عظيمة منقطعة النظير للتصدي للتيارات المعادية. واذا كان هذا الاتحاد يقوم على اساس الدين وبمحورية الولاية الالهية سيشكل ذلك سبباً لظهور الحكومة الدينية وديمومتها. ولتوضيح ذلك ينبغي أن نقول: اعتماداً على نظرية التفكيك، وهي النظرية الغالبة في الفكر الشيعي تقريباً: إن للسيادة الدينية مقامين: احدهما مقام (جعل الولاية) ويكون الموجد لها هو الله المتعال، وهو الذي يجعل حق

الحاكمية او السيادة على الناس او الشعب لشخص من الاشخاص، ويكمن في هذا الشيء عنصر الشرعية للنظام. لكن تحقيق النظام السياسي اضافة إلى الشرعية يحتاج كذلك إلى الاقتدار. فهنا يظهر المعنى للمقام الثاني، وهو مقام «تولي الامور والتصدي لها» ويلعب الناس دورهم فيه وهم يتيحون المجال لبلوغ «الولي المتمتع بحق السيادة والسلطة» لتسنم مقاليد السلطة.

فعلى اساس نظرية «شروط القوة» يتوقف تولي السلطة وتحقيق حاكمية الولي الالهي على «وجود الاقتدار» و«امكانية تحقيقه»[٧] بالرغم من وجود الحاكمية، كذلك دون وجود الاقتدار، وكذلك جواز تسنم السلطة. لكن عدم توفر امكانية تشكيل الحكومة واستمرارها. فعليه يظهر دور الاتحاد الاجتماعي في مجال تولي وتسنّم مقاليد الحكم. في الواقع يكون تحقيق وبلورة الحكومة الدينية حصيلة للتلاحم بين الشعب والولي الالهي. وفي هذا التلاحم نكون بحاجة إلى مستويين من الاتحاد: احدهما الاتحاد الداخلي للشعب والآخر اتحادهم وتنسيقهم مع الولي الالهي. كما تكون ديمومته واستمراره حصيلة وجود هذا التلاحم. اعتماداً على هذه النظرية، من الممكن أن يكون الولي الالهي من ناحية قوته الفردية والشخصية من أقوى الناس، لكن لاتتوفر امكانية تحقيق حكومته. حتى ومن الممكن مع وجود القوة العسكرية لديه لاتتوفر له امكانية توليه او استمراره في السلطة.

لذلك يدور الحديث في المعارف الدينية عن امور باسم «الاقتدار الاجتماعي» وما يقابله «الاستضعاف الاجتماعي»[٨]. فالمراد من القوة الاجتماعية هو المؤازرة العامة والتي نطلق عليها اسم الاقبال الاجتماعي، وستكون نتيجة ذلك تقوية المكانة الاجتماعية للدين وحاكميته او استمراره. وفي الطرف المقابل هناك الاستضعاف الاجتماعي؛ ويعني ذلك انفصال الشعب عن الولي الالهي وتركه لوحده، والذي يمكن اعتباره «انكاراً اجماعياً» ففي هذه الحالة لاتتوفر امكانية حاكميته او استمراره في الحكم.

فعلى هذا الاساس يمكن أن نقول بان ما يميز هذه النظرية هو الجانب الداخلي في مصدر السلطة. لتوضيح هذا الكلام ينبغي القول بأن الواقع هو أن الشعب يشكل المجال والارضية للحكومة. وما لم يرغب الشعب لاتتاح امكانية تشكيل اية حكومة او استمرار الحكم. بالرغم من إن الله عز وجل «ينصّب» الحاكم والقائد من الناحية التشريعية، ويمنحه حق الحاكمية والسيادة ولكن من الناحية التكوينية لديه «الاختيار» في قبول ما هو حق او رفضه و«امكانية اختياره للخير او الشر».

و لذلك ترتبط العينية والفعلية والتحقيق لحاكمية الولي المنصوب برغبة الشعب. فعليه إن النظرية التي تعتبر الشعب مصدراً للإقتدار تكون اقرب إلى الواقع. واذا كان الشعب متحداً في ابداء رغبته بالحكومة قلبياً وعملياً فعند ذلك يحصل التماسك الداخلي. ولايمكن لأية سلطة اخرى القدرة لمواجهتها. ولكن لو كان مصدر القوة للحكومة مقدرتها العسكرية او حتى الشخصية الذاتية للحاكم فهناك امكانية إندحارها اذ من الممكن أن تواجه معارضة الشعب. لذا تتمتع نظرية القوة الاجتماعية باتقان وواقعية بشكل اكبر.

وهنا ترتبط الحاكمية الدينية في الفلسفة السياسية للإسلام بعنصر القوة الاجتماعية، وتعتمد القوة الاجتماعية على اتحاد ابناء الشعب مع بعضه وتنسيقهم مع الولي الالهي. والعكس من ذلك فان انفصالهم عن بعضهم وعدم تنسيقهم مع الولي الفقيه (الالهي) يؤدي إلى استضعافهم وعدم إمكانية تشكيل الحكومة الدينية او استمرارها. اذن يتوضح مما ذكرنا بأن الاتحاد بين ابناء الشعب يؤدي إلى الاقتدار، ويساعد ذلك الحكومة الدينية في جانبين احدهما في بلورتها والآخر في ديمومتها.

الخلاف والاستضعاف

يتضح مما تقدم إن الخلاف يشكل المصدرللضعف والوهن الاجتماعي. فالله عز وجل يوصي الناس في القرآن الكريم بعدم التنازع.

«وا اطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين»[٩]

و عندما يسود الخلاف، سيكون الاندحار والآبادة امراً حتمياً. ويقول الرسول الكريم(ص) في هذا الجانب: «ما اختلفت امة بعد نبيها الا ظهر اهل باطلها على اهل حقها»[١٠] وتشير المصادر التاريخية إلى الخلافات التي كانت سبباً في القضاء على الافكار الدينية او اندحارها وحلول التفرقة والخلاف بين ابناء الامة.

و يشير الرسول الكريم(ص) في تقرير عام حول هذا الموضوع، ويعتبر ذلك موجزاً للتاريخ :

(لاتختلفوا؛ فان من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا؛)[١١] .

و قد عبر القرآن الكريم في مجالات عديدة عن نماذج لهذا المبدأ؛ الاستضعاف الاجتماعي الذي واجهه سيدنا نوح عليه السلام؛ إذ لم يستجيبوا لدعوته بعد قرون من تبليغه الرسالة ودفعوه إلى مواقع الضعف حيث شكى امره إلى الله عز وجل وقال:

« ... اني مغلوب فانتصر»[١٢] «و يعني ذلك: انا مغلوب امام هؤلاء الطغاة فانصرني يا رب! »

و هناك انموذج آخر في التاريخ من هذا القبيل وهو سيدنا لوط عليه السلام اذ كان لايتمتع بالقوة الاجتماعية اللازمة لتغيير حالات عدم الانتظام الاجتماعي بسبب عدم مؤازرته من جانب الناس حيث يقول :

(لو أن لي بكم قوة او آوي إلى ركن شديد)[١٣] بمعنى: ليت لي القوة عليكم او آوى إلى ملجأ قوي منكم.

اما سيدنا ابراهيم عليه السلام نجده يعتزل عن الناس بسبب فقدانه للتآزر الاجتماعي اللازم فيقول:

«و اعتزلكم وما تدعون من دون الله»[١٤] «اي اني أهجركم بسبب دعواتكم لغير الله».

سيدنا موسى عليه السلام يشعر بضعف موقفه بسبب انعدام المعين له، ويضطر للفرار من مصر خشية على حياته:

«فررت منكم لما خفتكم»[١٥].

و اخيراً يضطر رسولنا الكريم محمد (ص) إلى الهجرة من مكة بسبب عدم وجود الناصر وخشيته من الاعداء ويترك الامام علي (ع) ليحل محله.

و يلاحظ هذا الشيء جيداً كذلك في تاريخ الوصاية. فعندما يعود سيدنا موسى عليه السلام من الميعاد ليجد قومه يعبدون العجل مع وجود اخيه بينهم، فيحتج عليه بشدة على ذلك. فيرد عليه اخوه هارون بعبارة تعكس المبدأ المذكور في تحقيق واستمرار الحاكميات وهي:

«...يا ابن ام إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني...»[١٦]

«يا ابن امي يا موسى لقد استضعفني هؤلاء القوم وارادوا قتلي على اعتراضي عليهم في عبادتهم للعجل.»

نلاحظ هذا الشيء في بيعة الامام الحسن المجتبي عليه السلام لمعاوية. وقد اعلن معاوية في مراسم البيعة بان الامام الحسن قد اعتبرني الاصلح ، لذلك انه يبايعني.

و قد اجابه الامام الحسن (ع) قائلاً:

ايها الناس إن معاوية زعم إني رايته للخلافة اهلاً ولم ار نفسي لها اهلاً. كذب معاوية، انا اولى الناس بالناس في كتاب الله فعلى لسان نبي الله فاقسم بالله لو ان الناس بايعوني واطاعوني ونصروني لأعطتهم السماء قطرها والارض بركتها...

ثم يستند الامام الحسن إلى اداء هارون ورسول الله (ص) فيقول:

«هرب رسول الله (ص) من قومه وهو يدعوهم إلى الله حتى فر إلى الغار ولو وجد عليهم اعواناً ما هرب منهم ولو وجدت انا اعواناً ما بايعتك يا معاوية وقد جعل الله هارون في سعة حين استضعفوه وكادوا يقتلونه ولم يجد عليهم اعواناً وقد جعل الله النبي(ص) في سعة حين فر من قومه لما لم يجد اعواناً عليهم». [١٧]

ثم اشار الامام الحسن إلى قضية مع والده واعتبرها انموذجاً من المبادئ السائدة على قضايا الرسول الكريم (ص) وهارون:

«كذلك انا وابي في سعة من الله حين تركتنا الامة وبايعت غيرنا ولم نجد اعواناً وانما هي السنن والامثال يتبع بعضها بعضاً»[١٨].

و ينقل سلمان الفارسي قضية رحيل رسول الله (ص) وعندما كان الرسول (ص) في فراشه هكذا: ان الرسول الكريم قد خاطب الامام علياً(ع) قائلاً:

«يا اخي انك ستبقى بعدى وستلقى من قريش شدة من تظاهرهم عليك وظلمهم لك، فان وجدت اعواناً فجاهدهم وقاتل من خالفك بمن وافقك وإن لم تجد اعواناً فاصبر وكف يدك ولا تلق بها إلى التهلكة فانك مني بمنزله هارون من موسى ولك بهارون اسوة حسنة إذ استضعفه قومه وكادوا يقتلونه»[١٩] .

لذلك كان الرسول الكريم قد اخذ العهد من امير المؤمنين على (ع) انتفاضه اذا وجد معيناً لاحقاق حقه وتشكيله الحكومة وهذا ما نشير اليه باسم «الاقتدار في ظل الاتحاد الاجتماعي» وبلغ اسناد هذا العهد الحد الذي اكّد المرحوم العلامة المجلسي بشأنه التواتر حيث يقول:

«ورد في الاخبار المتوارة أن النبي (ص) اوصى علياً عليه السلام انك إن لم تجد ناصراً فوادهم وصالحهم حتى تجد اعواناً»[٢٠].

العبرة من التاريخ

يلاحظ في تاريخ الدين والحكومات الدينية بوضوح اولاً:

كان الاستضعاف الاجتماعي السبب في فشل الحكومات الدينية والقادة الالهيين وفي المقابل شكلت القوة الاجتماعية عاملاً لظهور الحكومات الدينية ودوامها ونجاح القادة الالهيين. وثانياً تحصل القوة كذلك عن طريق الاتحاد الاجتماعي والتحرك على محور الولاية. لذلك نجد ان الامام على (ع) يشير في جانب من خطبته القاصعة إلى تاريخ

القدامى ويطلب من الناس مطالعة ذلك التاريخ من ناحية النصر والهزيمة ومعرفة سر نجاحهم او اخفاقهم والاعتبار بذلك. ويرى الامام علي (ع) في رؤية عامة بان سر العزة والاقتدار في تاريخ الدين والحكومة الدينية يكمن في الاتحاد وسر ذلتها ومسكنتها في التفرقة؟. فيقول في هذا الجانب:

و احذروا ما نزل بالامم قبلكم من المثلات بسوء الافعال وذميم الاعمال فتذكروا في الخير والشر احوالهم. واحذروا أن تكونوا امثالهم فاذا نظرتم في تفاوت حاليهم فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم وزاحت الاعداء له عنهم ومدت العافية فيه عليهم وانقادت النعمة له معهم ووصلت الكرامة عليه حبلهم من الاجتناب للفرقة واللزوم للالفة والتحاض عليها والتواصي بها واجتنبوا كل امر كسر فقرتهم واوهن منتهم من تضاعن القلوب وتشاحن الصدور وتدابر النفوس وتخاذل الايدي» [٢١].

ثم يبحث الامام علي(ع) هذا الجانب من التاريخ بشكل دقيق ويؤكد بما معناه:

عليكم بالتفكير في ماضي القداما حيث عمل الفراعنة بعبوديتهم حيث لم يبق امامهم اي سبيل للهروب والدفاع عن انفسهم ولكن الله عزوجل الذي وجد صبرهم واستعدادهم للكفاح وضع امامهم فرجاً وابدل ذلتهم بالعزة وخوفهم وذعرهم بالأمن، وجعل عبيد الامس حكاماً على العالم واوصلهم إلى المكان الذي لا يبلغه الحلم.٢٢ ثم يشير الامام علي عليه السلام إلى سر هذه العزة والنجاح فيقول:

«فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة والاهواء متفقة والقلوب معتدلة والايدي مترادفة والسيوف متناصرة والبصائر نافذة والعزائم واحدة. الم يكونوا ارباباً في اقطار الارضين وملوكاً على رقاب العالمين».[٢٣]

في هذا الكلام يعلن سيدنا الامام علي(ع) بصراحة : بان التجربة التاريخية قد اثبتت بان سر عزتهم واقتدارهم كان في اتحادهم وانسجامهم.

لكنهم وللاسف اصيبوا بالافول والفشل بمضي الزمن كما يشير (ع) كذلك في

تحليله إلى هذه الفترة فيقول:

فانظروا إلى ما صاروا اليه في آخر امورهم حين وقعت الفرقة وتشتتت الألفة، واختلفت الكلمة والافئدة وتشعبوا مختلفين وتفرقوا متجاذبين قد خلع الله عنهم لباس كرامته وسلبهم غضارة نعمته وبقي قصص اخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين.[٢٤]

ثم يتحدث الامام (ع) بشكل اوضح عن عاقبة التفرقة والتشتت الذين أصابا ابناء اسماعيل واسحاق ويعقوب عليهم السلام فيقول بما معناه: بعد تلك ايام العز وبسبب بروز الخلاف ساد عليهم الاكاسرة والقياصرة واخرجوهم من ربوع العراق وبحاره ومن اراضيه الخضراء ومروجه نحو البوادي الجافة والعديمة للمياه والاعلاف وابتلوا بحياة صعبة وفي شظف واشغلوهم برعي الابل واختاروا اسوأ المنازل واجف الصحاري لم تكن دعوة حق يتمسكوا بها ولا ظل الفة يعتمدون عزّتها. ولذلك تعرضوا إلى الفقر والاضطراب وتشتت قدرتهم وتفرق شعبهم وتعرضوا إلى بلاء صعب وعالم متراكم ؛ كوأد بناتهم وعبادة الاوثان وقطع رباط القربة وسفك الدماء ونهب الاموال بينهم.

ثم يشير الامام علي (ع) إلى الفترة الذهبية لحياتهم واعادة اقتدارهم واتحادهم مرة اخرى وتراحمهم بنعمة الاسلام واستعادوا اقتدارهم فيقول:

«قد تربعت الامور بهم في ظل سلطان قاهر وآوتهم الحال إلى كنف عزغالب وتعطفت الامور عليهم في ذري ملك ثابت. فهم حكام على العالمين وملوك في اطراف الارضين يملكون الامور من كان يملكها عليهم ويمضون الاحكام فيمن كان يمضيها فيهم» .

ثم يحذر الامام(ع) من ان الخلاف والتفرقة بين الامة قد عادا ثانية وابتعادهم عن محور الوحدة (الولاية) ولذلك يتوقع لهم الامام مستقبلاً غير محمود، وقد اكّد التاريخ صحة ذلك التكهن. فانظروا إلى المصير الذي آل اليه المسلمون حالياً هل يمكن تسسمية هذه المرحلة بمرحلة العز للمسلمين؟

محور الاتحاد

قلنا ان تحقيق النظام السياسي، اضافة إلى عنصر «الشرعية يحتاج إلى القوة كذلك وعلى اساس الفلسفة السياسية للاسلام فان مصدر القوة هو الشعب ورغبته، والذي اسميناه بالاقتدار الاجتماعي ويعتمد على الاتحاد والوحدة. ولكن دون شك فان الاتحاد يحتاج إلى محور ليكون قاسماً مشتركاً للجميع ويحظى بقبولهم ليجتمعوا حوله وليوجدوا بذلك ظاهرة الاتحاد. فهناك امور عديدة يمكنها أن تكون محوراً للاتحاد. وتلعب طبيعة محور الاتحاد دوراً مهماً في نوعية الاتحاد وثباته . فالعوامل المادية والمصالح الدنيوية يمكنها أن تكون محوراً للاتحاد. لكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا عن مدى تمتع هذا الاتحاد بالانسجام والاخلاص؟ والى اي وقت يمكن أن يستديم؟ ما من شك قلما يمكن العثور على تحقيق الاتحادات المادية على الاخلاص والوداد. فالافراد يفكرون في هذا النمط من الاتحاد بمصالحهم المادية اكثر من تفكيرهم بالآخرين. فيبقى هذا الاتحاد إلى الوقت الذي تتأمن فيه المصلحة الشخصية للفرد وعندما لا تتأمن هذه المصلحة سينهار ذلك الاتحاد بل ويتحرك إلى عداء وتنافس.

في مقابل هذه العوامل، هناك العامل الديني. بما أن الدين يعتبر عنصراً سامياً ومنزّه من الدوافع المادية، فهو يشكل افضل محور للاتحاد. فالدين يجعل الله عزوجل الذي هو اسمى واقدس مفهوم في حياة الانسان وفي عالم الخليقة محوراً للاتحاد. فالقرآن الكريم يأمرنا بالاعتصام بحبل الله:

«واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا».

فهذا العنصر يترك اعمق واوسع الاثر وادومه على الشعب.لأن جذوره تمتد إلى معتقد الناس وايمانهم المتلاحم مع نظرتهم. فيحدد السبيل ويقرّب القلوب مع بعضها ويقوّي الافراد.

و يقول الله عزوجل في محكم كتابه:

«واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتهم بنعمته اخواناً»

فعلى اساس هذا العنصر تقاربت قلوب المسلمين مع بعضها وتلاحمت واوجد بينها اتحاداً عظيماً. ويتجلى هذا العنصر في مرتبته العينية بشكل اتباع ولي الله. اذ أن اولياء الله يشكلون المظهر لإرادة الله وحجته بين الناس. ولذلك يتجسد الاتحاد على اساس الايمان من خلال اتباعهم للاولياء وتكون الحياة الدينية الالهية رهن هذا الاتباع. فعليه يشكل الدين والايمان افضل محور للالتفاف حوله ويتجسد هذا الشيء باتباع اولياء الله.

الامام الخميني ونظرية الاقتدار

احيى الامام الخميني (ره) في العصر الراهن مرة اخرى مجد الاسلام وعظمته في جانب من كوكبنا الارضي، وترك ذلك التأثير الذي مازلنا نلاحظ انعكاساته في باقي مناطق العالم الاسلامي فقد ركّز هذا الرجل العظيم نظرية اقتداره مستلهماً من المعارف الدينية على الايمان والاتحاد. كما لا حظتم في تحليل الامام علي (ع) كان محور الاتحاد في الايمان. ولا يمكن الفصل بين هذين الاثنين. فعلى هذا الاساس لقد ركز الامام الخميني اقتدار حركته على الاتحاد والايمان واتاح الشعب من خلال القبول العملي لهذه الدعوة المجال لانتصار الثورة. وقد تبلور بذلك نظام الجمهورية الاسلامية الايرانية.

تشير الوثائق التاريخية إلى أن الامام الخميني (ره) قد تحرك على اساس هذه النظرية منذ دخوله ساحة النشاط السياسي وقد اصّر على ذلك في وصيته السياسية والالهية وكان هذا الشيء من الجوانب المدهشة لهذا الرجل العظيم.

يكتب الإمام الخميني(ره) في برقيته في رده على دعوة آية الله الحكيم لعلماء ايران للهجرة إلى العراق هكذا:

لنا الأمل أن نتمكن بوحدة الكلمة لعلماء الاسلام والمراجع –كثّر الله امثالهم– من المحافظة على استقلال البلاد وقطع ايادي الأجانب والدفاع عن حدود الاسلام

والقرآن الكريم، وأن لانسمح بتطاول الايدي الخائنة على الاحكام المسلّمة للإسلام ... ولي الثقة باننا من خلال وحدة الكلمة بين المسلمين سيما العلماء الاعلام تقويض صفوف الأجانب والمخالفين وأن لايفكّروا ابداً في العدوان على البلد الاسلامي.[٢٥]

يتضح لنا جلياً بأن الإمام الخميني كان منذ بدء الحركة واثقاً من أن سر استقلال البلاد واندحار العدو يكمن في الاتحاد.

كما روي انه كان قد خاطب آية الله السيد احمد الخونساري في كتابه اليه:

«عليكم بدعوة الناس إلى الانتفاض. ينبغي عليكم دعوة الناس إلى الاتحاد كي يكون الناس على استعداد عندما نصدر اوامرنا اليهم بالانتفاض.[٢٦]

و قد وضع سماحته (ره) في هذا الكلام «الانتفاض» والاتحاد» جنباً إلى جنب ويرى طريق النصر يكمن في دعوة الناس إلى الاتحاد وليس إلى جمع الاسلحة والذخيرة.

و الاطرف من ذلك كان الإمام الخميني ومنذ البداية قد اهتم بالمحور وبمركز الثقل للوحدة ويطرح بكل صراحة نظرية الوحدة الدينية مما يعكس ذلك النظرة الثاقبة والدراية لهذا الرجل الالهي.

و بعد تحرر سماحته(ره) من سجن الشاه خاطب طلاب جامعة طهران وجمع من طلاب وأهالي مدينة قم قائلاً:

«ايها السادة ابذلوا جهودكم لترفعوا العلم الاسلامي فوق الجامعة وليكن اعلامكم في الدين وابنوا المساجد واقيموا صلاة الجماعة وتظاهروا بالصلاة، فالوحدة الدينية لازمة. الوحدة الدينية هي التي توجد هذا الاجتماع العظيم المتلاحم. فلو كانت لكم الرغبة باستقلال ايران لتكون لديكم الوحدة الدينية.٢٧

و اعتبر سماحته في هذا الكلام كالبرقية التي بعثها إلى المرحوم آية الله الحكيم، اعتبر استقلال ايران يبقى رهن تحقيق الوحدة الدينية ويتحدث حول العناصر ومختلف المؤلفات التي تضمن التوصل إلى هذه الوحدة وهي عبارة عن الاعلام الديني وبناء

المساجد واقامة صلاة الجماعة ومنحها الطابع العلني.

في عام ١٩٧٨م عندما بلغت الثورة ذروتها يتحدث الإمام كذلك عن الاتحاد باعتباره عنصر الاقتدار. ففي تاريخ. ٢٢ يونيو ١٩٧٨م.

يقول سماحته:

« اليوم اننا بلطف من الله عز وجل نقترب إلى الهدف خطوة بعد خطوة ينبغي علينا دعوة الجميع إلى الاتحا والوحدة والأخاء. انني وبكل طاقة قد بذلت وابذل جهودي لتحقيق الوحدة بين كافة فئات الشعب المسلم.

قوة الوحدة

تناول سماحة الامام الخميني بتاريخ ١٠ اكتوبر ١٩٧٨ في كلمته موضوع الوحدة بشكل تفصيلي وبحسّاسية خاصة، وأعلن قلقه حيال تعرض هذه الوحدة إلى مخاطر، وقد خصص كافة كلماته لهذا الموضوع. ويتحدث في هذه الكلمة بشكل مباشر عن العلاقة الموجودة بين الاتحاد والاقتدار. وقد يمكن اعتبارها كأول تبيين لسماحته لنظرية الاقتدار. وفي توضيح بسيط وعام يشبّه كل فرد من افراد المجتمع بقطرة من قطرات الماء، من مراتب بلورة القوة القائمة على الشعب باسماء «قدرة القطرة» و«قدرة الجدول» و«قدرة النهر» و«قدرة البحر» ويقول: إن القدرات المنفردة دائماً تعاني من حالة الضعف والعجز الا في حالة تحويلها إلى قدرة موحدة ويحصل ذلك في رحاب الوحدة.. وفي الواقع يؤكد سماحته على انه مالم تتحول القوى المتعددة إلى قوة واحدة لايمكنها أن تكون مصدراً في التأثير وعنصراً في الاقتدار. ويتحدث سماحته اولاً عن قدرة القطرة ثم عن قدرة النهر والفرق الموجود بينهما:

ثم يتحدث سماحته عن مرتبة قدرة النهر الذي يؤدي إلى حدوث السيول فيقول: «اذا ما اتحدت الجداول والانهار التي نشأت من هذه القطرات وتتصل مع بعضها وتشكل سيلاً، فعندها تزداد القوة ويصبح السيل هادراً ... »

ثم يشير سماحته بعد ذلك إلى المرتبة التالية وهي قدرة البحر؛

«لو اتصلت جميع هذه الانهر مع بعضها وتتحول إلى بحر فتزداد هذه القوة التي

يستطيع موجها أن يقوض السفن.»

ثم يتحدث سماحته عن المجتمع الايراني فيقول في موازنة القوة: إن قدرة الشعب المتحد تفوق على القوة العسكرية للقوى الكبرى.

«و هكذا هو حال مجتمعنا. احسبوا للأفراد فرداً فرداً. فلو كان مائة مليون فرد على انفرادهم واحداً واحداً .... لايستطيع هؤلاء القيام باي عمل ... لقد فهم هؤلاء حالياً بوجود قوة في هذه النفوس وتمتلك ايران هذه القوة. القوة التي لاتستطيع دولة الاحكام العرفية تقويضها، القوة التي زلزلت حالياً القوى الكبرى فماذا عليهم أن يعملوا. فما هي الأعمال الشيطانية التي ينبغي عليهم القيام بها لاخذ هذه القوة من الشعب. فلو حافظتم على هذا الاتحاد وتقدمتم فانكم تكونوا قد انقذتم انفسكم»[٢٨].

حل المشاكل بآليات الوحدة

بتاريخ ٥ يناير ١٩٧٩ يشير سماحة الامام الخميني في اجابته على سؤال مراسل التلفزيون الآلماني حول تشكيل الحكومة إلى وجود المشاكل بعد النصر ويعتبر الحل الوحيد لتذليل المشاكل العسكرية وحتى الاقتصادية هو الوحدة:

« لدينا رجال امناء سياسيون في ايران وستشكل حكومتنا بواسطة امناء الشعب والخبراء. وطبيعي اننا نعلم جيداً باننا نواجه الكثير من المشاكل الاقتصادية والسياسية لكننا لنا الأمل الكبير لحل كافة المشاكل من خلال الاتحاد العظيم بين ابناء الشعب. فهذا شيء جدير بالاهتمام اذ يعتبر سماحته الاتحاد لازماً كذلك لحل المشاكل الاقتصادية .

استمرار الوحدة

لقد كان من شأن هروب الشاه وتصور تحقيق النصر أن يوجدا هذا الظن بأن العمل بات منتهياً، ولذلك كان من الممكن أن يعتبر أبناء الشعب نقطتهم المشتركة باتت منتفية

مما يؤدي إلى ايجاد الاختلافات.

لذلك يؤكد سماحته بتاريخ ١٧ يناير ١٩٧٩ بعد هروب الشاه وبعد تهنئته للشعب مباشرة ضرورة تجنب كل خلاف:

« في هذا الظرف الحساس فان بلادنا المصابة بتداعيات الحرب تحتاج اكثر من اي وقت آخر إلى الاتفاق، فينبغي بذل الجهود لتجنب حدوث اي خلاف»

محور الوحدة

و بعد ثلاثة ايام في ٢١ يناير ١٩٧٩ القى سماحته كلمة اعتبر فيها الوحدة عاملاً لقدرة الشعب وانتصاره على القوة العسكرية للشاه:

«انكم لاحظتم اثر وجود وحدة الكلمة في المجتمع الايراني تقوضت كافة اركان ذلك النظام الواحدة تلو الاخرى والذي كان يعتبر نفسه قوة عظمى وتقف وراءه القوى العظمى الاخرى.

ثم يتحدث سماحته عن نقطة اهم وهي محور الاتحاد فيقول:

«أنا انقل لكم هذه الموعظة الموجهة من جانب الله تبارك وتعالى شأنه بلسان القرآن الكريم. فهذه الموعظة تفهمنا بضرورة امتلاكنا لوحدة الكلمة: وأن تكون وجهتنا شيء واحد وهو «الله» عز وجل وأن تقوموا لله. قياماً لله .. الدعوة إلى وحدة الكلمة. إلى وحدة العقيدة وحدة العقيد تجلب وحدة الكلمة وتجلب الوحدة في العمل ... إن وحدة الكلمة في كوننا لله قد منحت لكم هذا النصر حتى الآن، حافظوا على هذه الوحدة في الكلمة».[٢٩]

ثم يشير سماحته إلى بناء الوحدة وهي العقيدة فقال: إن وحدة العقيدة تؤدي إلى الوحدة في الكلمة و«الوحدة في العمل».

البناء مع آليات الوحدة

الاهم من ذلك كان سماحته قد ربط موضوع البناء مع الوحدة وذلك بتاريخ ٨ فبراير عام ١٩٧٩ قبل انتصار الثورة وذلك في الكلمة التي القاها في مدرسة علوي

والذي قال فيها:

«إن شاء الله لي الأمل أن تستطيعوا بهمة كافة فئات الأمة أن تبنوا بلداً دفعوه نحو التخلف وقد ذهب هؤلاء وهم خربوا هذا البلد وأن تستطيعوا من خلال تكاتفكم جميعاً بوحدة الكلمة وبوحدة فعالياتكم أن تشرعوا ببناء ايران.[٣٠]

الوحدة الاسلامية

كما تحدث سماحته في كلمته في ٢١ من شهر يناير ١٩٧٩ وبات يؤكد ابتداء من هذا التاريخ وبعد ذلك على محور الوحدة ويعني ذلك التأكيد على الاسلام لذلك اكد سماحته بعد انتصار الثوة وبتاريخ ٨ فبراير ٧٩ على شيء بعنوان الوحدة الاسلامية وقال:

«إن سر نجاحنا الذي أدى إلى تقهقر القوى الكبرى وأدى إلى انهيار قوة شيطانية كقوة اسرة بهلوي وكان سر هذا النجاح يعود إلى وحدة الفئات ووحدة الكلمة. عندما وجد الشعب وقوف الجميع تحت راية الاسلام. فلولا قضية الوحدة الاسلامية لما كان من الممكن اجتماع هؤلاء.»[٣١]

و كذلك بتاريخ ٨ مايو ١٩٧٩ اكد سماحته في كلمته التي القاها في قم على محورية الوحدة وفرقها مع محور الحركات السياسية والوطنية وقال: «في العامين الاخيرين حيث بلغ الظلم اوجه ونفذ صبر الشعب، انتفض الشعب وقام بنهضته وهي نهضة اسلامية كانت من أجل الاسلام ومن اجل احياء سنة الرسول الكريم(ص). وبمشيئة الله تبارك وتعالى حصلت وحدة الكلمة في كل مكان من المناطق الحدودية وفي المدن وحتى في القرى والقصبات. فهذه الوحدة في الكلمة حصلت في ظل لواء الاسلام وعلم التوحيد. فلولا الاسلام ولو كانت الحركة السياسية هذه حركة وطنية وافترضوا وجود حركة سياسية في الساحة لما كانت تستطيع أن تتسع بهذا الشكل.[٣٢]

و في تاريخ التاسع من ديسمبر عام ١٩٧٨ اكد سماحته: «إن ما حقّق لنا كل

شيء قد تمثل في محورين هما: الاسلام ووحدة الكلمة».

السلاح الاستراتيجي

اعتبر سماحته الوحدة والتوحيد السلاح الاستراتيجي للشعب:

«لقد وجد هؤلاء حصول هذا النصر من وحدة الكلمة واتكال الشعب على الله ويعلمون في حالة وجود هاتين القضيتين اي الاتكال على الله ووحدة الكلمة ستحصل الانتصارات التالية. إن مخططهم يرمي إلى اخذ هاتين الحيثيتين اللتين حققنا بهما هذا النصر من الشعب ويأخذوا وحدة الكلمة من الشعب ويأخذوا الاسلام من الشعب وينزعوا الشعب سلاحه. لقد كان سلاح شعبنا الاسلام ووحدة الكلمة. وفي غير هذه الحالة انكم لم تمتلكوا السلاح ولكانت كافة الاسلحة موجودة لدى عدوكم ولم يكن لديكم شيء. كان سلاحكم الايمان بالله والاسلام والوحدة في الكلمة. انهم ينوون نزع اسلحتكم. واخذ الاسلام منكم واخذ وحدة الكلمة كذلك منكم.»[٣٣]

كما اتضح وضع الامام الخميني نظريته في القوة على الوحدة القائمة على التوحيد وقد استفاد منذ البداية وفي كافة المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية من هذا السلاح الاستراتيجي. وهذا مستوحى من المنطق الديني في موضوع الاستضعاف والاقتدار وقد تحدثنا حوله. لذا يكون القتدار والنظام الاسلامي رهن الوحدة القائمة على الدين والبلد وينبغي دائماً الحفاظ عليه والتأكيد عليه.

الهوامش:

١ نهج البلاغة، الخطبة رقم ٢٥، كنز العمال، ح و٣٩٦٧

٢ – الروم: الآية ٩

٣ – فاطر: الاية ٢٢

٤ – غافر: الآية ٢١

٥ – البقرة: الآية ١٢٩

٦ – كاريزمية: كاريسما فرهمند، وهو لفظ يوناني. وقد ادخل هذا المفهوم لاول مرة في الادبيات السياسية بواسطة ماكس وبر (عالم الاجتماع والسياسي الآلماني ١٨٤٤– ١٩٢٠م) ويعتبر ووبر أن القوة الكاريزمامية هي نوع من استخدام السلطة السياسية والاجتماعية.

٧ – فيما يتعلق بدور الشعب في التولي، قدمت نظريات مختلفة، كنظرية «شرط الشرعية» والتي تنيط حق الحاكمية باصوات الشعب وإن نظرية «جزء الشرعية» حيث تعتبر رغبة الشعب شرطاً للشرعية. ولكن تنطوي كذلك كل واحدة من هذه النظريات على تقارير ووجهات نظر لايتسع المجال هنا لنقدها وبحثها. ولكن الكاتب يرى إن الدين يعتبر رغبة الشعب شرطاً للقدرة ومصدراً للإقتدار ونحن اعتماداً على هذه النظرية نتابع هذا البحث ومن أجل المزيد من التوضيح راجع رسالة التخرج للكاتب بعنوان بيعت (البيعة).

٨ – « ... إن القوم استضعفوني وكادو يقتلوني»

٩ – الانفال: الآية ٢٦.

١٠ – امالي المفيد، ص ٢٣٥، ج٥ ؛ امالي الطوسي، ص ١٠، ج ١٣.

١١ – صحيح البخاري، ج ٣، ص ١٢٨٣، ح ٣٢٨٩ ، مسند ابن حنبل، ج ٢، ص ٦١ ح ٣٨٠٣

١٢ – القمر: الآية ١٠

١٣ – هود: الآية ٨٠

١٤ – مريم: الآية ٤٨

١٥ – الشعراء: الآية ٢١

١٦ – الاعراف : الآية ١٥

١٧ – بحار الانوار، ج ٤٤، ص ٢٢

١٨ – الطبرسي، الاحتجاج، ج ٢، ص ٨

١٩ – الشيخ الصدوق، كمال الدين وتمام النعمة ، ص ٢٦٢

٢٠ – العلامة المجلسي، بحار الانوار ، ج ٢٨ ، ص ٢٢٦

٢١ – بحار الانوار ، ج ١٤، ص ٤٧١

٢٢ – وتدبروا احوال الماضين من المؤمنين قبلكم كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء. الم يكونوا أثقل الخلائق اعباء واجهه العباد بلاء واضيق اهل الدنيا حالاً اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب وجرعوهم المراء فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة وقهر الغلبة لا يجدون حيلة في امتناع ولا سبيلاً إلى دفاع حتى اذا رأى الله جد الصبر منهم على الاذي في محبته والاحتمال للمكروه من خوفه جعل لهم من مضايق البلاء فرجاً؟ فابدلهم العز مكان الذل والأمن مكان الخوف فصاروا ملوكاً حكاماً وائمة اعلاماً وقد بلغت الكرامة من الله لهم مألم تبلغ الآمال اليه بهم».

٢٣ – بحار الانوار، ج ١٤، ص ٤٧٣

٢٤ – نفس المصدر

٢٥ – صحيفة الامام ، ج١ ، ص ١٨٢

٢٦ – نفس المصدر، ص ٢٨٣.

٢٧ – نفس المصدر، ص ٢٦٧

٢٨ – نفس المصدر

٢٩ – نفس المصدر ، ص ٥٠٣

٣٠ – نفس المصدر ج ٦ ص ١٠٦

٣١ – نفس المصدر، ص ١٨٨

٣٢ – نفس المصدر، ج٧ ، ص ٣٤٤

٣٣ – نفس المصدر